عاشقان

بقلم : محمد ديب
ترجمة : فاروق يوسف اسكندر

محمد ديب واحد من كوكبة الكتاب الذين انصهروا فى بوتقة الكفاح من أجل تحرير الجزائر .. واستعملوا الفرنسية للتعبير عن أدب ثورى وطنى خارج نطاق الجزائر ...

وله خمس روايات « بالفرنسية » اولاها واشهرها جميعا « الدار الكبير » التى صدرت عام ١٩٥٢ ... وثانيتها فى الشهرة .. « من ذا يذكر البحر » ثم « الحريق » و « النساجون » و « صيف افريقى » وله مجموعتان من القصص القصيرة هما « فى القهوة » و « بابا فكران » وسيصدر له فى أوائل العام القادم ديوان شعر بعنوان «الظل الحارس »

ومحمد ديب حين يمسك قلمه ليسجل مأساة عصره كما عاشها فى الجزائر يبحث عن أسلوب جديد . اذا يرى أن الاسلوب التقليدى قد يصلح للملاحم وتدوين الوثائق .. ولكنه يرى ان المهم فى الوقت الحاضر هو أن نصل الى الاسلوب الجديد الذى يجعلنا نمقت الحرب وعواقبها السيئة دون أن يحدثنا الكاتب عن احداث بشعة ويقول : « ان البشاعة تجهل الجديد .. ولا تعرف سوى التكرار !!! »

ومازال يعيش يتابع انتصارات بلاده بأسلوب رائع فى رقة أسلوب كامو ومالرو .. !

***

وانصرفا

كان النهار ينحصر فى الشارع . وعلى امتداد الرصيف المتألق .. يتباعد بعض المارة الاتلائل ويتقاربون .. ومن فوقهم ترتطم مياه وسحب رقيقة بذهب السماء دون أن تطفئه .. وفيما وراء الاشجار الشامخة والبساتين الفسيحة. كانت هذه المياه وهذه السحب تغلف بالصمت منازل صغيرة تبدو مهجورة..

سارا فى بادىء الامر دون استعجال واسرعا عندما لاحظا ان الالوان الحمراء والاشعة الذهبية اكتسحت الشارع .

ومن وراء ظهرهما ، فجأة . زام الترولى باس .. حتى كاد يلمسهما . وحجب عنهما الشارع . فاندفعا . يجب الا يفوتهما . انه آخر ترولى .

وصل الترولى الى المحطة . نزل منه

الركاب . كانت نعيمة معلقة بذراع فضيل وتتراقص على كعبيها . اما هو فقد ضم كوعها الى جسده ، فى حركة تلقائية ، يساعدها على الصعود . كانت هى تضربه احيانا على وجهه بشعرها .

تحرك الترولى فى انين طويل . فقفز فضيل اولا على السلم ، وفى اندفاعه رفع نعيمة ، فاذا هى بجواره وقد تعالت ضحكاتها .

دفعتها حركة الترولى نحوه . فرفعت يديها الى الامام لتخفف من وطأة الصدمة وظلت تضحك . وقفز الترولى من جديد وامسكت نعيمة فى هذه المرة بمعصم الشاب بينما زادت سرعة الترولى .

وقعت انظارهما معا على الحقيبة التى كانت تحملها فى يدها . وهمهمت :

ـ لاتخش !!

وابتسمت ثم نظرت الى جهة اخرى :

ـ انى لا أقوم بذلك لاول مرة ..

انتابه شعور بعرفان الجميل ، وبدا الرجال والنساء من حولهم غير مكترثين وكأنهم شهود من حجر .

كانت نعيمة تضم الحقيبة الى صدرها ، وقد اثنت ذراعها عليها .

وتوالت محطات الترولى الذى كان يتجه الى وسط المدينة . واخذ فضيل ينزلق نحو حالة من الذهول والدهشة لم يستسلم اليها تماما بفضل وجود نعيمة وطمأن نفسه قائلا : (لاخطر من ان انساق وراء ذلك) .. وتمالك نفسه وقد اصبح على حافة الهاوية .. ولكنه كان على يقين من انه سيقفز فيها ـ بين لحظة واخرى .

واحس فجأة ان الترولى قد توقف عن السير .. وان العالم ازداد كثافة .. انسياب الاشياء من حول فضيل يلفه فى دوامة احاطت حواسه بضباب كثيف .. انها تمهد لموجة من الدوار لن تنسحب قبل ان تجرفه .. وضم جفنيه ثم فتحهما . كان الترولى مازال يسير .. ثم قال محدثا نفسه : « لن اقول . لن اقول كل ماانتظره من الحياة، لن اقول كل ماأود ان افعله .. »

كان الضوء قد انتشر وتوهج . بعض الاشجار فى الحدائق المبعثرة فى المدينة كأشجار الحور تشع بريقا . وتحوم فى المدنية بوادر حريق كبير .

وابتسم فضيل ابتسامة وداع لظلال بعيدة .. لمنزل ولامرأة عجوز .. بذل جهودا للتعرف عليهما .. فى وسط المنزل شجرة خوخ متفرعة الاغصان.. وفى ركن من الاركان كرمة تتسلق السطح . لتفرد فروعها على فناء الدار ووالداه واقفان كل على مقربة من الآخر .. وعلى بعد من الآخر ! هما !! ماذا يريدان ؟

وكأنهما ارادا الافصاح عن شيء ، اى شيء ! شيء حى يبحث عنه .. ويشعر انه يطوقه دون ان يصرفه .. ولكن لم يفتح احدهما فاه . فهل يقدما اخيرا على الكلام ؟

كان ينصت فى انتباه . ثم ادرك انهما قد تكاما . فى اى لحظة ؟ الم يفهماوتصلب فىمكانه وهو لا يدرى .

وهبت ريح باردة سوداء على العاطفة الدافئة التى اشتعلت فى نفسه .. وتلاشت الظلال ، انه لايدرى .. من اية مدينة عتيقة تركها وراءه .. اثبتت هذه الظلال . وخلفت الظلال السنة من اللهب تتراقص أمام عينيه .

كانت المدينة تتدحرج فىاتجاه البحر وتدور فى بطء حول نفسها . وتجرف

المبانى والحدائق وكانت اشـــجارها منتصبة كشعر القنفذ . ومن ورائهـــا انعكاس الضوء الشاحب على الخليج . كان البحر يجمع ما تبقى من ضوء ، فى بؤرة بيضـــاء مركزة . وكان الدوران المستمر يجرف هذه البؤرة المتأججةالتى تتجلى بطريقة متقطعة . فما عسي يظن والده به وبنعيمه . فهمـــا لم يتعودا رؤيتهما معا ترى هل يفهمانه ؟

وعلىكل فكيف نؤاخذهما علىذلك ؟ انهما لايعرفان الطريق الذى يســـلكه الابناء على مراى منهما ..

وضحك فضيل لهذه الفكرة ..

وبادلته نعيمة الضحك ..

وارتشعت من فوقها .. ســـماء سبتمبر .. وكانت شديدة الصـــفاء والاكتمال .

وخصته بابتسامة . لقـــد عاوده شروده .. ومن جديد واجهت رجـــلا مجهولا لها .. وفجأة واجهت فى قلق لغزا عاريا .. ومنجديد انتصب امامها الرجل الأعزل .. واكتشفت فى نفسها مشاعر خوف مبهم وافكار متلعثمة .. وكأنما تحركت حركة غير موفقة فضلت فى تيه..تعذرت عليها الرؤية واخذت تتحسس طريقها ..

هذا الرجل الضائع ليس هو فضيل لقد تمت عملية الاستبدال فى لمح البصر فلم تلحظها حال وقوعها ..

وظلت منكمشة فىهذا التيه لاتعرف فى اية جهة تبحث .. لقـــد ارتبكت لتصرفه .. واخذت تفكر فى حذر .. فسالت نفسها :

« ترى من ذا الذى ينقـــذه ؟ من ذا يوجه المأســـاة ؟ انا ؟ انا ؟ لسوف اكتشف حقيقة نفسه .. فلنمش جنبا الى جنب لاكتشف حقيقة نفسه ..

وفكرت .. ترى هل تطلعـــه على خواطرها ؟ لا .. لقـــد قدرت مدى مجازفتهـــا ان هى اقدمت على ذلك ، فامتنعت عنالكلام . لسوف تبلغه ذلك عند انتهاء المهمة الموكولة اليهما ..

كانت فى الوقت نفسه تفهم وترفض ان تفهم !! ليست العزلة وحدها سبب هذه الشغرة المثقوبة فى فؤاده انمـــا سحر التضحية الفطرى ، من أسبابها. ايضا لسوف تنجح هى بفضل حبها له فى تحطيم المرآة المعتمة حيث يتـــأمل فضيل نفسه .. ولن يصرفهذا الشيء عنها .

قالت لنفســـها « .. هل ســـيرى احدنا الآخر بعد مرور هذه اللحظة .. بعد مرور هذا اليوم ؟ ربما لن نتقابل أبدا بعد اليوم . »

وترنحت نظراتها وشردت ولم تلتق داخل الترولى ســـوى بوجوه مغلقة . وجوه من صوان : رجال ونســـاء تنتقل على وجوههم نفس التعبيرات المتآكلة. وتقفز من واحد الى آخر .. وجوه كلها منطفئة .. لا تعبر الا عن الخوف من الموت او عن رغبة اصحابها الكامنة فى القتل .وانتهزت نعيمة فرصةاحدى رجات الترولى .فاقتربت من فضيل لتحتمى من البرد الذى تشعه اشباه هذه الوجـــوه التى تحاكى الاقنعة وارتعش كل بدنهـــا وفى نفسالوقت تلاشت الروعة التى امتلأ بهـــا الجو والبحـــر والمدينة .. واصبحالجو باهتا رماديا . واخذالعالم يتساقط فى رماد المساء .

كان فضيل يراقبالركاب الآخرين . فرأى فيهم تماثيل محترقة .. القت بها كارثة الفسق .. وكانت كل التمـــاثيل صامتة .. لقد قالت : « عما قريب »

نظر الى رقم ساعته الاوحد . لن ينقضي طويل وقت قبل ان يصل عقربا

الساعة اليه .. والقى بصره على نعيمة ..

ورفعت هى ايضا عينيها نحوه .. وضغطت اصابعها المسحوبة على ذراعه بكل قوة .

وارتسمت شبه ابتسامة على وجه فضيل . انفرجت لها ملامحه . وكان ذلك كافيا .. لتكتشف نعيمة فيه وجه الغلام الكبير الذى عرفته فى كلية الحقوق بالجامعة .. وانتابتها رعشة جديدة .. وتصلبت .. وحاولت النطق بأية كلمات طرات على بالها .. قالت :

ـ انحن ذاهبان الى هناك ؟ .

فمال عليها واجاب :

نعم .. نحن ذاهبان ..

وعندما فرمل الترولى تارجحت كتلته المندفعة ونزل بعض الركاب . ونزل ايضا فضيل ونعيمة ..

كان يبدو ان احدهما لا يكترث بالآخر او يعرفه . كانت نعيمة تتعقب فضيل من على بعد ، مراعية الا يتوه عن بصرها ..

وشق فضيل طريقه وسط الزحام وسبقها . ومشت وراءه نعيمة . وبدد مشيتها وشعورها بالارض الصلبة تحت قدميها ما يشبه الضباب فى نفسها .

وكان الليل قد اطبق على الجزء الاكبر من المدينة . ولكن واجهات المحلات التى افلتت من الدمار بمعجزة لا نعرفها .. سطعت متألقة فحددت الاضواء معالم الشوارع بأكملها . او ما يشبه الشوارع وعربات الترام والسيارات التى اوصدت ابوابها على ما فيها من الركاب . التقطت هذه الاضواء فى لمح البصر .

كانت المصابيح وحروف النيون المرتشعة تحترق لموت المدينة . والمارة انفسهم فقدوا تماسكهم اكثر واكثر . وكأنهم ظلال او اشباه دمى . اخذت تتداخل وتتكاثر وتتنافر بطريقة آلية . كانوا شاردين ومع ذلك فقد دبت فيهم حياة رهيبة ..

وهبطت على فضيل راحة نفسية خفية واقتنع لحظة انه يستطيع اذا ما اراد . ان يسير مغمض العينين فى حركة آلية وسط هذه الجموع الكاذبة وترك نفسه للتيار يحمله . ومر باشكال غير واضحة وواجهات صماء ومرايا ضخمة وكانه لا يحتاج الى ان يفكر او يرى ..

وكانت نعيمة لا تزال تتعقبه . من بعد .. ظلال واضواء منكسرة ، ثم ظلال وانفجاراتوكرات من نار . تجول وتدور . وكلما اقترب من (فندق البريد) ازدادت الجماهير والمدينة كثافة . وخضع فضيل لقواها المتعددة . تجذبه وتدفعه .. وتسلل فضيل اليها وكأنه جسم غريب .. وعانى من مقاومات غامضة معقدة . ارادت ابعاده عن الطريق .. وسأل نفسه قائلا :

ـ « ترى هل تتمكن نعيمة من تعقبى ؟ »

وكانت هذه الفكرة هى الدفة التى توجهه والنور الذى يقصده ... انه لايستطيع ان يلتفت الى الوراء .. يجب ان تظل انظاره ثابتة امامه .. وثبتت خواطره حول هذه الفكرة

وخطر بباله ان يلقى نظرة الى ساعته لاداعى للاستعجال او الالتفات .. فبمجرد ان فارق نعيمة اخذت المدينة المفترسة تطوقه . وهوى فى الفراغ المتعطش المتربص لكل انسان اعزل . وتقلب فيه .

بحر معتم من البشر فى كل خطوة

يخطوها . تطلع وجوه الناس كالاقنعة يجرفها تيار لا يقهر . وكان المستحيل التقاط تعبيراتها او تبادل النظرات معها كانت اقنعة متداخلة فى تكرار لا يتبدل تحجرت وعيونها مفتوحة كانت الوجوه غرقى فى الشارع .. وحدث نفسه قائلا اية رحلة هذه التى اقدمت عليها ؟ .. وكانت وجوه النساء تتجلى من وقت لوقت من هذا البحر المتلاطم وتبقى على السطح فترة أطول . وجوه نساء جميلات ذات ملامح صارمة ، اخذت تراقب فضيل فى اصرار .. ثم انتهى بها الامر الى الزوال كالاخريات ، كل الاخريات واحتفظ فضيل لحظة بهذه الرؤية العابرة . من اين اتت هذه الوجوه القاسية او الرقيقة ذات العيون البراقة الجامدة التى لاتتجاوب مع شيء . الى اين تتجه ومن اى منبع اتت . وهيجت فيه هذه الوجوه جرحا ينزف دما دون ان ينفتح ..

كانت نعيمة لا تزال تتعقبه ..

وكانت عربات الترام المضاءة من الداخل تمزق المدينة بصريرها الحاد . وتوافدت العربات فى حركة متزايدة ومتقطعة . وخرجت من الليل دون توقف دافعة كل شيء امامها . والمارة ملتصقون بواجهات المحلات فوق الارصفة المزدحمة ولم يتلق فضيل من هؤلاء الرجال والنساء سوى انطباعات مشوهة لرؤوس لاعيون ولا ملامح لها ، كتلك الرؤوس التى نراها فى الاحلام . ودفع المارة على عجل فخففوا مشقته . وحرروا جسده من جهد المشي ، فأخذ يفكر فى دقة ووضوح .

وقال لنفسه : حتى النهاية . سنذهب حتى النهاية .. حتى آخر جذوة من النار المتأججة فى نفوسنا .

وتوقف ، لقد وصل الى المكان المعين وانتظر .

لم ينتظر طويلا ، فقد لحقت به نعيمة كانت تنتظر بعيدا . وفتحت الحقيبة . وخطت خطوة . واصطدمت بالشاب وكأنها لا تراه . ودست فى يده السلاح واحس فضيل ببرودته فى يده . وطواه فى الحال فى جيب سترته الايسر ، من الداخل ، على قلبه . واستدارت نعيمة فى حركة آلية وواصلت سيرها وكان جسدها كله يراقب الناس من حولها . لا احد يقتفى اثرها . وتوقفت فجأة وكأنها تذكرت شيئا . وعادت من حيث اتت تراقب المارة بطرف عينها . وكان قلبها يضرب ضربات قوية . يجب ان تظل هادئة طبيعية . مسيطرة على نفسها . وتحرك فى اتجاهها . وتعرف عليها وسط الزحام . واخذت تردد : « يجب الا اراه . وجوده لايعنى اكثر من وجود اى انسان آخر فى الشارع ... » . ثم واجه كل منهما الآخر فى لحظات . يجب الا تخطئه .. خطوة ثم خطوتان . ثم ثلاث خطوات وارتبكت فلم تعرف من اين تمر على يمينه ام على يساره . وهو ايضا ارتبك ولم يعرف .

— معذرة يا سيدى .

— معذرة .

ومرت بعد ان سلمته القنبلتين اليدويتين وعبرت الى الرصيف الآخر . وواصل هو سيره . وجرت بسرعة . سلكت شارعا جانبيا . لتلتقى به فى هذه المرة لامن الخلف بل من الامام . وفى مكان يبعد عن الحانة التى تنتظر القنابل .

ودون وعى منه وبفعل تلقائى اخذ يعد خطواته . خطـــوة ، خطوتان .. ثلاث خطوات.وكأنه تذيفة طائرة ذات سرعة تجهل الزمن . وتال من اعماقه دون توقف .. خطـــوة .. خطوتان « ثلاث » .. اربع . هنا لقد وصل . واحد . اثنان . ثلاثة .. وانتزع صمام القنبلة الأولى . وقذفها .. اربعة .. القنبلة الثانية .. انفجرت الاولى .. خمسة .. ســتة . وارتفعت اصوات المرايا المتناثرة صراخ . عويل . سبعة ضجيج . ارتج الشارع منضغط الهواء ثمانية . تسعة .. سباق .. سباق جنونى ، تقذف بالناس فى كل اتجـاه ومضي يعد : عشرة .. احدىعشرة.. وابتلعت الناس مداخل المحلات والبيوت والممرات وقد اصبحت مخابىء من صنع العناية الالهية ..

وبقى الشارع خاليا .. خاليا تماما الى مسافة بعيدة .. توقفت الحيـــاة وتوقفت حركة المـــرور .. والحـــانة وســـطها متأجج : دماء . ومرايا مهشمة وارتفعت صيحات استنجاد وصرخات احتضار . ولكن سرعان ما صمتت هذه الاصوات . وهوى على الدائرة المندثرة صمت عنيف .

ومن خلال صمت لا يفنى تأرجـــح الفضاء المرصع بآلاف الاضـــواء . من طرف الى الآخر . وكأن قلب المدينة قد تهشم .

وانصرف فضيل وهو يترنح .

وبعد فترة . فترةطويلة جدا . دوى صوت عيار نارى اعزل . وقفة قصيرة ثم دوت اعيرة اخرى . وطرقت الليل طلقات اخرى من مدفع رشـــاش . واخترقت الليل فى مكان ما مجموعة من الصفارات . واقترب من جميع الطرق صفير عربات الحرب .

وفى حركة ارتداد عنيفـــة . اخذت الجماهير تعود الى الحانة . وصـــوب بعض المتعصـــبين المخبولين مسدساتهم واطلقوا نيرانهـــا . وذقونهم مشدودة الى الامام . جماعات صاخبة . ونساء تبكى بانفعـــال شديد .. وقام بعض رجال الامن والجنود وجنـــود المظلات بتطويق جميع المنافذ . ومن الامام ، ومن الخلف ، وفى كل الشـــوارع الجانبية ، صفارات عربات الجيـــب لا تكف عن العويل انهـــا تحمل نجدات وطوقهم الحصار وضـــاق . وتقبل الناس الأمر عن طيب خاطر .

بلغ فضيل الرصيف الاخر ضـــمن الجماهير الهـــاربة ، عاد الى الوراء وجرى لمسافة بضـــعة امتار . ثم دار حول ناصيةالشارع المجاور ذات الزاوية الحادة . ووصـــل الى مفترق طرق . واكتشف نعيمة على مســـافة قصيرة . وتنهد وتباطأ ومشي مشيـــا طبيعيا . وتعقبها ونظراته مثبتة عليها . ونسي كل شيء .

بين حين وحين ، كان يشعر بضرورة بذل جهد لوضع قدم امام الآخر : وانتابه خمول عام . ولكنه لم يتـــألم . واثقل بدنه ضيق ســـخيف . واخذ يتقدم بصعوبة متزايدة . كان يجد مشقة فى تخليص نعلى حـــذائه من الارض التى يمشي عليها وكأنهـــا صارت قطنا . وتحول الجو الىجليد وفىنهاية الطريق بدا امامه لهيب مضيء يتراقص : انهـــا نعيمة .. الهواء من حولها متوهج .. فهـــل يجد فى نفسه القوة ليقـــترب منها ؟ امر لا بد منه .. لا بد من المشي . لا بد من المشي خطوة . ثم خطوة اخرى

من اى جهة عساه يلحق بها ! .. كانت تنتظره لا تتحرك .. ثم غيرت مكانها فى بطء وابتسمت فضلا عن ذلك .. كانت تقترب احيانا من سلم الزمان وتبتعد منه احيانا اخرى . وود لو استطاع ان يصيح بكل قواه :

ـ « يا نعيمة !! »

ولكنه عدل عن ذلك واندلعت النيران كانها نهار جديد نشر بياضه حول المدينة المذهولة والليل المتواصل ، وتألق النهار القاتل دون أصداء . فى غير وضوح . وترنح فضيل . واستند الى جدار ومال الى الامام جاحظ العينين .. ثم توقف لاهثا .. وتأمل نعيمة .. فرآها واقفة فى حديقة ملاه واسعة فى طرف الشارع وقد احاط بها اللهب .. وانتشرت النيران ..

وارتجف .. اراد مواصلة سيره والالحاق بها ايا كان الثمن . ورفضت ساقاه ان تحمله فى هذه المرة ..

فأغمض عينيه . وظل مغروسا فى مكانه يتمايل متحيرا . وقد نسي الوقت الذى يمر ثم حرك قدميه وحاول رفعهما وعاد يمشي فى اتجاه نعيمة واخذ جسده يذوب وينساب والظلال تفترسه فتخفف من وزنه . واخذت المسافة التى تفصل بينه وبين نعيمة تتضاءل .. وانشق الفضاء من تلقاء نفسه .. وفى واجهة محل قبعات متوهجة انتصبت دمية خشبية واحدة شبه عارية ..

واخذت الدمية الخشبية تراقب قدومه الى ما لا نهاية ... يا للخبل !!

وادرك فضيل ما حدث له .. لم يخف ولم يصرخ .

كان لا يتألم . انه لايهتم ولا يستطيع الاهتمام بغير هذا الضوء الذى يقسمه جزءين ..

كان لا يزال يستند الى نفس الحائط ويراقب الدمية الخشبية وخاف ان يخطو خطوة واحدة . فتسقط الدمية على وجهها .. خواطر .. خواطر لا آخر لها .. تسير على غير هدى .. فى بطء يدفع الى الهذيان وقد تحالفت وطوقته الخواطر .. وطوقته المدينة باسوار دائرية .. اهذا هو الموت ؟

وهمس فى اذنه صوت نعيمة قائلا :

ـ فضيل .. ماذا بك ؟

ووصلت الفتاة من خلفه ، لا من امامه « اهى النهاية » لم يرها وهى عائدة. وظن انه سيقع .. انه سيقع فى الحال .. ولم يقع .. واندهش :

ـ لقد اصبت .

ظن انه نطق بهذه الكلمات .
وكتمت نعيمة صرخة .

ـ ماذا بك ؟

وشهق فى صوت عال :

ـ لقد اصبت .. خذى وانصرفى .

ـ ماذا آخذ .

ـ السلاح.. السلاح الذى احمله .

ـ لا !!

ـ خذى وانصرفى . ارجوك .

ـ لا !! اسمع !

ـ خذى .

وكتمت نعيمة اضطرابها . وتغلبت على الضعف الذى نهش ساقها . ووقفت الى جانبه كتفا الى كتف .

وقالت متوسلة فى نفس واحد :

« اسمع . ضع ذراعك هنا على . (وامسكت) استند الى . امش معى .. نحن عاشقان ..

ومشي معها . وارخت المدينة اغلالها من حولهما بعد ان بدت لحظة وكانهـا تزيد احكام تطويقهما . وامتدت الشوارع هادئة في شبه البراءة ..

وسارا في بطء . وقد احاطها بذراعه واسندته هي عند خصره .. كان لايرى سببا للمشي ولا يعرف لهما غـاية . لا شيء ولا احد في اي مكان ينتظرهما. فالى اين مسيرهما ؟ ولكن ماأهمية ذلك؟ لقد عادت نعيمة ، ودعته للمشي وهـو لا يحفل بشيء غير ذلك .

العشاق لايسرعون ابدا . كان المارة قليلين يدبون في خفة ... وتصاعدت من خلفهما ضوضاء . يخترقهـا دوي طلقات نارية .. وواصلا سـيرهما دون ان يهتمـا بشيء وكـأن ذلك لا يعنيهما .

وفجاة ، سبقتهما سيارة حربية .. وانتشر الجنود . وافراد قوات الامن في الشارع . وايقنت نعيمة ان التهـديد يلاحقهما . فالى متى يستطيعان السير دون اثارة الظنون ؟

والتقيـا بسـيارة محملة بجنود المظلات . واخذ الجنود يتفكهون بهما..

ودارت نعيمـة الى اليمين دون ان تغير الرصيف .. وتوقفت وقد انهكهـا مابذلته من جهد . واسندت فضـيل الى واجهة منزل .. والتصـقت به وداعبته . هكذا يمكنها ان تستريح قليلا على حين تنتظر ان تقلحركة العربات .

والآن اين نذهـب ؟ .. في اي اتجاه ؟

هي وحدها تعرف ذلك . هي وحدها ستخرجه وتخرج نفسها من هذا المازق. ومالت على فضيل تحدثه وتسأله فلم تهتد الى سـؤال واحد . وايقنت الا جدوى من كل ذلك . كانت راسه مدلاة على صدره . ولا يسمح له اي صوت.. وخيل اليها انه فقد وعيه .

وبعد فترة بسحبته . وعبرت الطريق واستقبلتهماحارة معتمة تؤدي الى الميناء والى الامان اذا لازمهما الحظ . وامتلأت نعيمة اطمئنانا بلغ حد الفرح تقريبا . ويبدو ان فضيل عاد اليه وعيه واخـذ يتاوه في عمق ... عـربات الجيب تجـول في اصرار عبر الشـوارع المجاورة .. ان رجال البوليس يبحثون انهم لم يبحثـوا بعـد بالقـدر الكافي .

وفي هذه اللحظة رات نعيمة دورية تقتـرب في بطء وحذر . وارتمت هي وفضيل نحو باب مغلق واسـندته الى احد مصراعيه عند ركن الباب . ودنت الدورية منهما وامسـكت الفتاة راس رفيقها بين يديها ، وجذبت وجهه نحو وجهها وهمست في انفعال شديد :

ـ قبلني يا حبيبي .. قبلني . انظر الي انظر !!!

ووضعت شفتيها على شفتي الفتى. ولكن شفتيه لم تشعرا بشيء . وضغطت عليهما ففتح عينيه قليلا وكانه لم يتعرف عليها . ولكن ادركتها بعد لحظة اجابة خافتة ، جاءت من بعيد ، من شـفتي الفتى وبلغ مسامعها شيء اشـبه بالهمس ، شيء ارتبكت له واضـطربت بينما كان الهمس يغوص في صدرها .

وقالت لاهثة :

ـ « انى لك !! »

وتنحنح احد جنود الدورية :

ـ اجم .. احم .. !!

وقلده الآخرون وفي صوت واحد :

ـ احم .. احم !!

واحتكوا بهما ، ثم ذابوا في الليل ولم يبق منهم في النهاية سـوى ظـلال

صفير ... يا للعجب .. لم يسمعوا طرقات قلبها القوية ! واختفى فجأة كل شعور بالخوف وتلاشي . لقد زال كل خطر !!

وحاول ان يسكتهما صوت جاءهما من الطابق الثانى فى أحد المنازل :

ـ ايها العاشقان أهذا وقت مناسب للقبلات ؟ هذا امر مبالغ فيه . انصرفا من هنا !!

وانصرفا فى هدوء ..

مشيا بعض الوقت . كانت نعيمة لاتدرى أين تذهب . فقد كان من المستحيل التوجه الى المخبأ المتفق عليه. واخذ جسد فضيل يتثاقل مع مرور كل لحظة . وبذلت مافى وسعها لتمنعه من السقوط . ان ساقيها ترتعشان . ولو استمر ذلك لانحنت ركبتاها .

وقالت فى صوت منخفض :

ـ يافضيل .. الا تستطيع المشي ؟

ولم يجب بشيء .

ـ لم لاتحاول ان تخطو قليلا .

وتنهد الفتى تنهيدة طويلة ..

واضطرت الى التوقف عن السير . كان يبدو لها انها تسحب جسدا منهك القوى . جسدا بدون حياة . فكيف تسير به ؟ هل هذا ممكن فى تلك الظروف ؟

وتدبرت الامر لحظة . وتمالكت نفسها وتغلبت على ضعفها وعادت الى المشي . وقررت من الآن الا تلاحظ تصرفاتها او تراقبها . فالابواب كلها موصدة والنوافذ مغلقة .. وكانت انفاسها المتمردة ترتطم فى صدرها وتلهب رئتيها . وتقدمت وهى تراقب فى شراسة الشارع من حولها . وبلغت قمة منحدر يصل مباشرة الى الميناء . انه خال تماما . والمكان موحش . وكأنهما خارج العالم . ورطوبة الليل مشبعة برائحة السمك والقطران والمازوت القوية المنبعثة من البحر الخفى .. وفى أماكن متباعدة .. تخترق الظلام دون ان تضيئه مصابيح مرتفعةمغروسة على مسافات منتظمة.. كانت ترسم عبر الشارع طريقا وهميا. تتغامز فيه فتايل مشتعلة لا آخر لها .. وتأملت نعيمة الشرار الغارق فى ضباب البحر. وأدركت مدى عزلتها الشاسعة.

كبتت يأسها ، ولم تتردد طويلا ، وقررت مواصلة السير قدما على امتداد المنحدر . فربما اكتشفت فى اسفل الطريق ، فى أعماق المخازن السوداء ركنا امينا تتوارى فيه فى انتظار الصباح .

واهتزت الارض فى هذه اللحظة وظهر من فوقهما قطار مصحوب بصفير لاينتهى وتلاشت كل هذه المناظر غير الواضحة بما تشمله من عمارات وقطع ارض مهجورة وارصفة وحواجز بحرية. وتسربت عربات القافلة واحدة واحدة. واختفى القطار فى ممر معتم . ولم يبق منه سوى بريق تعرجات الخطوط الحديدية الغامضة .. وارتكزت على السور وأسندت فضيل بيدها اليمنى واخذت تهبط المنحدر فى خطوات قصيرة .

لم تسر اكثر من عشرين مترا واذا بكشاف مسرع جاء يلتقى بهما واسقط اشعته عليهما وتسلطت فى سرعة مذهلة .. عين ضخمة مثبتة فى الهواء. وكأنهاتقرأ فى صفحة الغيب ..ضوءها متوحش يحترق فى شبه هذيان . ضوءا ابتلع المدينة كلها ، وابتلع الليل كله ..

وظنت نعيمة ان هناك من يصيح :

ـ ابرزا البطاقة الشخصية !

ولكن لم يكن هناك عيون غير هذه العين ترشقهما بشعاعها المتحجر !!!